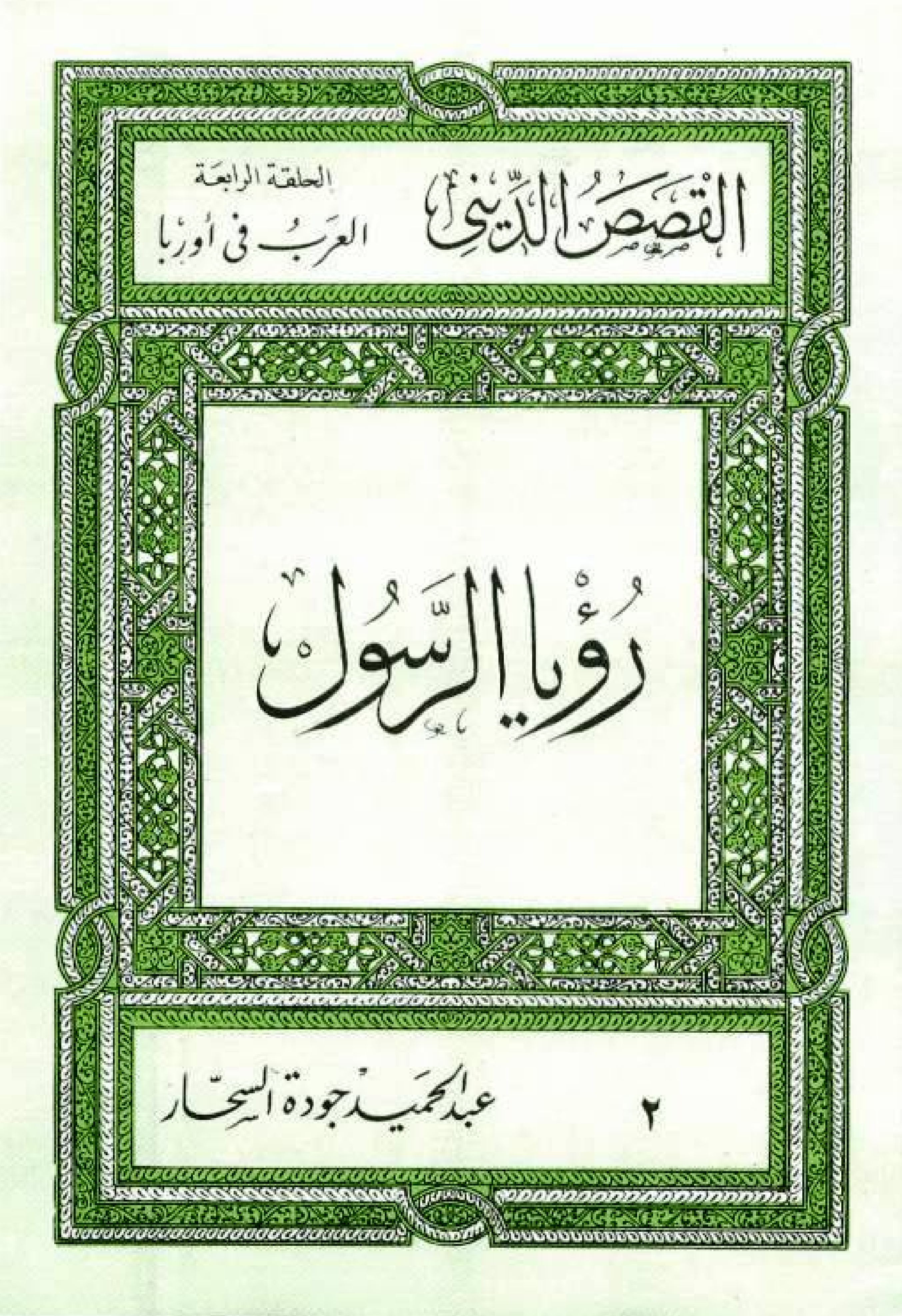

القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا
رؤيا الرسول
عبد الحميد جودة السحار
٢

١

انطلق رسولُ اللّهِ فى طرقاتِ المدينة فى حُلّةٍ حمراء، يتكفّأ فى مِشيته كأنّما الأرضُ تُطْوَى له ، يلبَس النّعال السِّبتيَّة ، ويطأ الأرضَ بقدمِه جميعا ؛ يُلقى السَّلامَ على أصحابه ، ويمسحُ بيدِه خدودَ الأطفال الّذين يستقبلونَه فرحين ، فتملأُ أنوفَهم رائحةٌ أطيب من المسك ، وتَذْخَرُ صدورُهم بمشاعرَ أرقَّ من النَّسيم .

كان مستديرَ الوجه ، أبيضَ مُشربا بياضُه حمرة ، ضخمَ الرَّأس ، عظيمَ العينين ، أهدبَ الأشفار ، مقرونَ الحاجبين ، رَجْلَ الشَّعرِ أسودَه ، يضربُ مِنكبيْه ، كثَّ اللّحية ، دائمَ البِشر ، سهلَ الْخُلُق ؛ فراحَ النَّاسُ يرنُونَ إليه ، وقد انشرحتْ صدورُهم ،

فقد أزاح الغِشاواتِ عـن عيونِهـم ، وأخرجهـم من الظُّلماتِ إلى النور .

ودلفَ إلى دارِ مِلْحان ، واضطجع علـى حصـير ، وراحَ في النَّوم ؛ وجلست ابنة مِلحانَ عنـدَ رأسِـه . فلمَّا استيقظَ ضحِك تبسُّما ، فاستنارَ وجهُه ، وكأنَّه قطعةُ قمر .

فقالت : ما أضحكك يا رسولَ اللّه ؟

فقال وهو مُشرقُ الوجه : ناسٌ من أمَّتي عُرِضـوا عليَّ ، يَركَبون ثبَجَ البحـر ، مثـلَ الملـوكِ علـى الأسِرَّة .

فقـالت : يـا رسـولَ اللّه ، اُدعُ اللّـهَ أن يجعلنـي منهم .

فقال وقد علاهُ البَهاء : أنتِ منهم .

فرفَّتْ على شفتيْها بَسمة ، وشرد بصرُها ، ورأتْ نفسَها بعينِ خيالِها تمخُر البحـرَ مع إخوانٍ لهـا من

المجاهدين ، الّذينَ وهبوا أنفسَهم للّـه ؛ فخفقَ قلبُها شوقا ، وتدسَّس بين جوانِحها أملٌ حلوٌ مُرتجى .

٢

أقبلَ عُبادةُ بنُ الصَّامِت وصحبُه ، ودخلوا دارَ مِلحان ، يعلو وجوهَهمُ البِشر ، وما استقرُّوا فيها حتّى قامَ رجلٌ يذكرُ مناقبَ عُبادة ، ويقول إنّه أحدُ الّذين وافوا الرَّسولَ بالعَقَبةِ الأُولى ، ومن أوائلِ الّذينَ اختارهم رسولُ اللّهِ ليكونوا على قَدَمِهم فى العقبةِ الثانية ؛ وهو الذى أمره النّبىُّ بالمُضِىِّ بيهودِ بنى قَيْنقاعَ إلى ظاهرِ ديارِهم ، بعد أن أخذَ ما كان لهم من مالٍ وسلاح وأمرَ بإجلائِهم . واستمرَّ الرَّجلُ يذكرُ فضائل عُبادة ، ولم يَقُلْ إلاّ صِدْقا . فلمّا انتهَى من خُطبتِه ، قامَ رجلٌ آخرُ يُعَدِّدُ فضائلَ مِلحانَ

وقومِه ، حتّى إذا أتمّ خُطبتَه ، جيءَ بالطّعامِ . فأقبلَ الناسُ عليه مسرورين ، وارتفعتْ من حُجُراتِ النّساءِ أصواتُ الدُّفوف ، وطَفِقَ بعضُ الأحباشِ يلعبونَ أمامَ الدّار . ثمّ أخذتِ الأصواتُ في الْخُفوت ، وجعلَ الرِّجالُ يَنْسَلّونَ إلى دورِهم ، ولمْ يبقَ إلاّ عُبادَةُ ومِلحان ، فقادَ مِلحانُ صاحبَه إلى حيثُ كانت ابنتُه ، وقال له :

– بارَك اللّه لك فيهنّ .

وحمل عُبادَةُ بنُ الصّامِت ابنةَ مِلحانَ إلى دارِه ، فقد صارتْ له زوجَة .

٣

بعث أبو بكرٍ الجيوشَ إلى الشّام لغزوِ الرّومِ ، فَخَرَجَ عُبادةُ بنُ الصّامتِ مع الخارجين ، وانطلقتْ

معه أمُّ حَـرام بنتُ مِلحانَ زوجُه ؛ تشاهد المواقعَ خافقةَ القلب ، مُضطربَةَ النفس ، كلمّا زحف الرِّجال إلى الرِّجال ، وتقارعتِ السُّيوف ، مُشرقةَ الوجه ، ضاحكةَ السِّنّ ، قريرةَ العين ، كلّما سقط النَّسرُ الرُّومانيُّ وتقلَّص ظِلُّه ، وجلجلت فى السُّهولِ الفيْحاءِ تكبيراتُ الفتح المبين !

وطُويتِ الأرضُ كما يُطْوَى البساط ، تحت أقدام الرُّومان ، بعدَ أن رَوَّتْ دماؤُهم الوديانَ والسُّهول ، وترددَّت فى الفضاء صيحاتُ خالد بن الوليد ، وأبى عُبيدَةَ بْنِ الجرَّاح ، وعمرو بنِ العاص ، وصناديدِ المُسلمين ، كالزَّئير .

واندَاحَ المسلمونَ فى الشَّام ، حتَّى بلغوا السَّواحلَ المشرفةَ على بحرِ الرُّوم ، فوقفت أمُّ حَرام ، بنتُ مِلحان ، ترنو إلى الماء فى شرود ؛ كانتِ الأفكارُ تنثالُ فى رأسِها الصَّغير ، فتتحرَّكُ الأمانى

بينَ جوانحِها ، فيزدادُ وجيبُ قلبها ، وتتدفّقُ الدِّماء حارَّةً فى العُروق .

إنَّها ترى الماءَ مُنبسطًا أمامَها ، وقد انطبقتْ عليه السَّماءُ فى الأفقِ البعيد ، والمراكب التى خلّفَها الرُّومُ جاثمةً فى المرفأ ارتفعتْ صَواريها فى الفضَاء ؛ فيهزُّها السُّرور ، وتتفتّقُ أمامَ عينِ خيالها حُجُبُ الغيْب ، عن عوالِمَ عجيبةٍ مسحورة ؛ فما هى إلاّ أن يضعَ المُسلمون أقدامَهم فى هذه المراكب ، ويمخُروا بها عُبابَ هذا البحْر ، حتّى يمحُوا عنه اسمَ الرُّوم ، ويحقّقوا رُؤيا الرّسول !

٤

واشرأبَّ مُعاويةُ بعُنقهِ ، ورمى ببصره إلى البحْر ؛ فإذا بالأُمنِيَةِ التى راودَتْه فى يقظتِه ومنامِه ، تحتلُّ أقطارَ رأسِه . إنّه يرجو أن يركبَ البحرَ فى إثرِ

الرُّومِ المنهزمين ، فقرَّ رأيه على أن يبعث بأُمْنِيَتِه إلى عمرَ أمير المؤمنين ، فكتب إليه :

« يا أميرَ المُؤمنين ، إنَّ بالشام قريةً يسمعُ أهلُها نُباحَ كلابِ الرّوم ، وصياحَ ديوكِهم ، وهم تلقاءَ ساحلٍ من سواحِلِ حِمص » ، وسأله أن يأذنَ له بغزوهم . فلمَّا بلغَ الكتابُ أميرَ المؤمنينَ ، أطرق يُفكِّرُ ، فمعاويةُ هو المشيرُ بالغزو ، وما كان عمرُ ليأذنَ له قبلَ أن يستشير ، فكتب إلى عمرِو ابنِ العاص : « صفْ لى البحر ، ثم اكتُبْ إلىَّ بخبرِه » .

وَبلغه كتابُ عَمْرو ، فكعفَ عليه يقرؤُهُ :

« يا أميرَ المؤمنين ، إنّى رأيتُ خلقًا كبيرا ، يركبُه خلقٌ صغير ، إن رَكنَ خرَقَ القُلُوب ، وإن تحرّك أزاغَ العُقول ، يزداد فيه اليقينُ قِلّة ، والشّكُّ كثرة . هم فيه كدُودٍ على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق » .

ألفَى عمرُ أنَّ فى ركوب المسلمينَ البحرَ فى أثر عدوِّهم ، قبلَ أن تستقرَّ الأمورُ فى الأرض ، مخاطرة ؛ فكتب إلى مُعاوية : لا ، والَّذى بعثَ مُحمَّدا بالحق ، لا أحمِل فيه مُسلما أبدا .

٥

وكاتب ملكُ الرُّوم عمرَ وقاربَه ، ومشتِ الرُّسلُ بينَهما . وفى ذاتِ يومٍ بعثتْ أمُّ كُلثوم ، بنتُ علىٍّ ابنِ أبى طالب ، زوجةُ عُمَر ، إلى ملكةِ الرّومِ بطيبٍ ومشاربَ وأحفاش من أحفاشِ النّساء ، ودسَّتْه إلى البريد . فلمّا بَلغَ البريدُ امرأةَ هِرَقْل ، قدَّمَ إليها هدية زوجةِ أميرِ المؤمنين ، فجمعتْ نساءَها وقالت : هذه امرأةُ ملكِ العرب ، وبنتُ نبيِّهم ، أرسلت إلينا هَديَّة فماذا تَرَيْن ؟

ـ أهدى لها هديَّة ، تليقُ بامرأةِ هِرَقْل ملكةِ الروم .

فبعثتْ إلى أمِّ كلثومِ بهدايا فاخرة ، وبعقدٍ يتألَّق يبهرُ العُيون . فلمّا انتهى البريدُ إلى عمَر ، ورأى الهدايا المُرسلة إلى زوجه ، دعا : « الصلاةَ جامعة » ؛ فوفد النَّاسُ من كلِّ صوب ، حتى التجَّ بهم المسجد ، فصلى بهم ركعتين ، وقال إنّه لا خيرَ فى أمر أُبرم عن غير شورى من أمورى ، قولوا فى هديَّةٍ أهدتْها أمُّ كُلثوم لا مرأةِ ملكِ الرّوم ، فأهدتْ لها امرأةُ ملكِ الرُّوم .

فقال قائلون : هُو لها بالّذى لها ، وليست امرأةُ الملكِ بذِمَّة ، فتُصانِعَ به ، ولا تحتَ يدِك فتتّقيك .

وقال آخرون : قد كنَّا نُهدى الثِّيابَ لنَستثيب ، ونبعثُ بها لتُباع ، ولنُصيب ثمَنها .

فقال عمر :

ــ ولكنَّ الرَّسولَ رسولُ المُسلمين ، والبريدَ بريدُهم . رُدُّوا هذه الهدايا إلى بيتِ المال .

وانصرفَ عمرُ إلى دارِه ، وقد عَزَم أن يُردَّ على أمِّ كُلثوم بقدرِ نفقتِها .

واستمرّتِ الرُّسلُ بينَ عمرَ وملكِ الرُّوم . فتيقّنَتْ أمُّ حَرام ، بنتُ مِلحان ، أنَّ بشارةَ الرَّسولِ لم يحِنْ أوانُها ، ولكنّها كانت على ثقةٍ من أنّها من أولئك الّذين سيركبون ثَبَجَ البحر ، مثلَ الملوكِ على الأسِرَّة .

٦

وقُتِلَ عُمر ، وصار عثمانُ خليفةَ المسلمين ، فعادتْ فِكرةُ ركوبِ البحرِ لغزو الروم ، تُلحُّ على معاوية ، فكتب إلى عثمانَ يستأذِنه في الغزْو ، فشرح اللّهُ صدرَ الخليفةِ للفِكرة ، وأطرقَ يتدبَّر

أمرَه ، فألفَى أنَّ العربَ ليست لهم سابقةٌ فى هذا الطرازِ من القتال . إنهم فُرسانٌ صناديد ، لا يُشقُّ لهم غُبار ، أبطالٌ إذا صالوا على الأرض ؛ أمَّا فى الماء ، فما يدرى ما يفعل هؤلاء الذين مرَّغوا أنوفَ صناديدِ الفُرس والرُّوم فى الرَّغام .

إنَّه يرى أنَّ من الحِكمةِ ألاّ يدفَعَ المُجاهدينَ دفْعا إلى هذا الخطرِ الجديد ، المحفوفِ بالأهوال ؛ فكتب إلى معاوية : « لا تنتخبِ النَّاس ولا تقْرَعْ بينهم ؛ خيِّرهم ، فمن اختارَ الغزوَ طائعًا ، فأحمِلْه وأعِنه » .

وخيَّر معاويةُ النَّاس ، فهُرعتْ أمُّ حَرام بنتُ مِلحان ، إلى زوجها عُبادة ، تحضُّه على التَّقدُّم ، فإذا به من أوائلِ الذينَ اختاروا الغزْوَ طائعين . وتقدَّم أبو ذَرٍّ وأبو الدَّرْداءِ ووجوهُ النَّاس ، وتأهَّبت المراكبُ للانطلاقِ لغزوِ قبرص ، أوَّلِ معقِلٍ بحْرِىٍّ للرُّوم .

وابتعدتْ أوَّلُ مراكبَ إسلاميّةٍ عن الشاطئ ، تحوطُها قلوبُ المؤمنين ؛ وراحتْ أمُّ حرام ترنو إلى الواقفينَ مودِّعين ، وهي تبتعد عنهم رُوَيْدًا رُوَيْدا ، فغامتْ مآقيها بالدُّموع . وسقط اللَّيْلُ وابتلعَ في جوفِهِ المراكبَ التي كانت تَشُقُّ طريقَهَا في سبيل اللّه ، فطفق المَسلمونَ يقرءونَ ويُصَلُّون ؛ فنزلتِ السَّكينةُ بقلوبِهم ، وغشِيَهُم أمْن ، وأُفعمتْ صدورُهم بالأمل الدّفيء .

وَوقف قائدُ أَوَّلِ أسطولٍ إسلاميّ ، يبتهلُ إلى اللّهِ في حرارة :

اللّهم ارزقْني العافيةَ في جُندي ، ولا تَبْتلِني بمُصابِ أحدٍ منهم ، اللهم أنزلْ علينا نصرك ، اللهمَّ أيِّدْنا بروح من عندِك ، اللهَّم انصُرْنا على القوم الكافرين ! .

وأصبحَ الصباح ، فَجَعلَتْ أم حَرامٍ تُديرُ عينيْها

فى المُجاهدينَ الذين معها فى المركب ، فإذا العزمُ الصّادقُ يلوحُ فى مُحيّاهم ، وإذا بهم يركبون ثَبَجَ البحر مثلَ الملوكِ على الأسِرّة ؛ فتوّجتْ شفتيْها بَسمة ، وتبيّن فى وَجهِها الرِّضا والغِبطةُ والسُّرور .

ولاحتْ مراكبُ الرّوم ، وخلفَها أرض الجزيرة ، قد نبتتْ فيها أشجارُ الفواكه ؛ فاصطفَّ المُسلمونَ فى المراكِب صفوفا ، وارتفعَ التكبيرُ والتّهليل ؛ وهبّتِ الريح فجعلتْ تعبثُ بالمراكب ، ولكنْ لم تُزِغْ قلوبَ الصّناديد .

ودنتِ المراكبُ من المراكب ، فربَط المُسلمونَ سُفنَهم بسُفنِ الرّوم ، ثم اجتلدوا وإياهُم بالسُّيوف ، ووثبَ الرِّجال على الرِّجال ، وتألقَّتِ السُّيوفُ فى الشَّمس : كانتْ ترتفعُ لتهوى ، تقُط الرُّءوس . ودارتِ المعركةُ رهيبَةً قاسية ، فغلبَ الدَّمُ على لون الماء ؛ ولاحت مراكبُ فى الأُفق البعيد ، إنِها

الأسطولُ المِصرىُّ قد أقبلَ يقوُده والى مصرَ عبدُ اللّه بنُ سعدِ بنِ أبى سرْح ، ليشُدَّ أزْرَ إخوانـهِ الخـارجينَ منَ الشّام .

اندحرَ الـرّوم ، وتقدَّمـتِ المراكـبُ مـن قُـبرص ، حتّى إذا بلغتِ الشَّاطىء ، هبـط المسـلمونَ منهـا إلى الأرض ، وهـم فـى تكبير وتهليـل ، وتقلّـص ظِـلُّ النّسرِ الرُّومانىِّ عن الجزيرة ، ووقـع السَبْى ، وغنِـمَ المجاهدون غنَائم كثيرة ، وإذا بأبى الـدَّرداء ينظُـر إلى مـا يقعُ أمـامَ ناظريْه ، ثـمَّ تغيـمُ عينـهُ بـالدُّموع ، وتنحـدِرُ حتَّـى تبُلَّ لحيتَه ؛ فيرنُو إليـه رجـلٌ فـى عجَب ، ويقول له :

ـ ما يُبكيك فى يوم أعزَّ اللّه فيه الإسلامَ وأهلَه ؟!

فضـرب أبـو الـدَّرداء بيدِه علـى مَنْكِبِ الرَّجـل وقال :

ـ ثكِلتْـك أمُّك ، مـا أهـونَ الخلقَ علـى اللّـهِ إذا

تركوا أمرَه . بينا هم أمة ظاهرةٌ قاهرةٌ للنّاسَ لهمُ المُلك ، إذْ تركوا أمرَ اللّهِ ، فصاروا إلى ما ترى ، فسلّطَ عليهم السّباء ، وإذا سُلّطَ السبّاءُ على قوم ، فليس للّهِ فيهم حاجة .

وهبطتْ أمّ حرام ، بنتُ مِلحان ، إلى الجزيرة ، وهى شاردةُ اللُّب ، تُمدُّ بصرَها إلى ما حولَها ولا ترى شيئًا ، فقد كانت ترى بعينِ خيالِها رسولَ اللّه وهو يضحكُ وقد استنارَ وجهُه ، كأنّه قطعةٌ من قَمر ، وتسمعُ بأُذنِها ما دارَ بينَه وبينَها :

- ما أضحككَ يا رسولَ اللّه ؟

- ناسٌ من أمّتى عُرِضوا علىّ ، يركبون ثَبَجَ البحر ، مثلَ المُلوكِ علىّ الأسِرّة .

- يا رسولَ اللّه ، ادعُ اللّهَ أن يجعلَنى منهم .

- أنتِ منهم .